تجلي الله لموسى عليه السلام وإعلانه الرسالة

في البداية، نلاحظ اختلاف القصة القرآنية عن التوراتية من حيث اشتراط موسى على حميه في مدين مدة زمنية مرنة تتراوح بين ثمانية إلى عشرة سنوات قمرية يقضيها عنده، مما يعني أن موسى كان يترقب حدوث أمر ما على الجانب المصري ليعود، فلم يشأ أن يورط نفسه بوعد يتعلق بزمن طويل يقضيه في أرض المهجر أو المنفى، أو بمدة ثابتة واجبة الوفاء، على خلاف النص التوراتي الذي يظهر أن موسى كان قد ترك الأمر بمجمله للأقدار، فلم يشترط زمناً معيناً، ولم تبد لديه أية نية أو بوادر نية للعودة إلى مصر، وعليه فقد قضى في مديان أربعين سنة حسب النص التوراتي، وهذه النقطة بالذات هي محك الخلاف التالي في الأحداث بين النصين القرآني والتوراتي، فالنص القرآني يشير إلى أن موسى أكمل مدته، ومن ثم ترتب عليه تأهبه للعودة إلى مصر مصطحباً أهله، وبعد رحيله من مديان وفي طريقه إلى مصر جاءت حادثة (التجلي الإلهي)، أما النص التوراتي يظهر أن التجلي الإلهي كان أثناء تواجد موسى في مديان وليس بعد خروجه منها، عندما كان يرعى غنم حميه بجوار جبل حوريب (جبل الله توراتيا)، وهكذا فإن المنطق التوراتي يصور لنا موسى مطمئناً لحياته البسيطة تلك في مديان، وانقطع عن تلمس أخبار مصر، حتى أن الله نفسه هو الذي أخبره بموت فرعون الأول وأعوانه من طالبي حياته، وبمعنى آخر وأوضح فإن النص القرآني يبرز لنا شخصية موسى كشخصية جهادية ثورية تترقب الأحداث، بينما التوراة ونصوصها تبرز لنا أن موسى شخصية قدرية تتقاذفها الأمواج، ولا يملك أي تخطيط معين للتصرف حيال هذه الأقدار والأمواج. فشخصية موسى القرآنية تتواكب تماماً مع تصرفاته القيادية فيما كان ينتظره من أحداث جسام مضت وأحداث أضخم منتظرة.

أما عن حادثة التجلي الإلهي فيخبرنا القرآن الكريم: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ

عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [طه].

وقال كذلك: ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص].

وقال جل وعلا: ﴿ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗاۖ سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [النمل].

أما التوراة فتقول عن حادثة التجلي الإلهي تلك: [وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان. فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب. وظهر

له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة. فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق. فقال موسى أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم. لماذا لا تحترق العليقة. فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة وقال: موسى موسى. فقال هأنذا. فقال لا تقترب إلى ههنا. اخلع حذاءك من رجليك. لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة. ثم قال أنا إله أبيك إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب. فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله] (خروج ٣ : ١ – ٦).

ونستطيع من المقارنة بين النصين أن نجد عدة اختلافات، أولها، هو توقيت حدوث التجلي الإلهي، فالقرآن يحدده أنه تم أثناء الليل، والتوراة تحدده نهاراً أثناء رعي موسى لغنم حميه يثرون. والتحديد القرآن الزمني ظهر مؤخراً أنه في غاية الأهمية، لإثبات حادثة التجلي الإلهي برمتها.

ففي معرض تأويل زينون كاسيد وفسكي المادي لأحداث قصة موسى يقول: [ففي التوراة يروي موسى للإسرائيليين كيف كلمه يهوه من العليقة الملتهبة التي لا تحترق. ولكننا الآن نعلم علم اليقين أن مثل هذا النبات موجود فعلاً ولا يزال حتى الآن موجوداً في شبه جزيرة سيناء ويسمى عليقة موسى. وهذه الشجرة عبارة عن نبات ذي خصائص فريدة يرسل خيوطاً من الزيت في الأثير تتوهج بسهولة تحت أشعة الشمس. ولقد جلبوا إلى بولونيا نموذجاً عنه وزرعوه في محمية سكورتيت. وفي عام ١٩٦٠م كتبت الصحف تقول إن عليقة موسى اشتعلت في أحد الأيام القائظة ناراً ذات لون أحمر سماوي][1] انتهى.

وعلى هذا فإن الفقرات السابقة قد تشير إلى تلك الحادثة، على أنها حقيقة منطقية ملموسة تنزع الصفة الإلهية عن الأحداث، لو كان التجلي الإلهي قد حدث في وقت النهار، أما أن يقول القرآن لنا أن هذه الحادثة تمت أثناء الليل فهذا يدحض التأويل السابق، ويتناغم ويتناسق مع أحداث التجلي الإلهي الإعجازي لموسى، بل إن للحوار القرآني الذي دار بين موسى وأهله لتوضيح مقاصد ذهابه إلى النار المشتعلة المتقدة من بعيد ﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ

(١) زينون كاسيدوفسكي، الواقع والأسطورة في التورات، ص١١١.

هُدَى ﴿١٠﴾ ﴾ [طه]. وكذلك: ﴿ ...لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ ...﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص]، يوضح لنا أن الجو كان شديد الظلمة، مما أدى إلى أن يفقد موسى طريقه وهو الخبير بمسالك الصحراء باحثاً عن دلائل إرشادية تهديه في الطريق، بالإضافة إلى أن تلك الليلة كانت قاسية البرودة، ولا تسمح بأي تواجد حراري قد يحدث أي ظاهرة طبيعية ﴿ ...أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص].

ثم نأتي لنقطة أخرى في هذا الصدد، وهي أن القرآن يرينا أن النار في تلك الليلة حالكة السواد، كان أسلوباً منطقياً لجذب موسى تجاه بقعة معينة يكلمه الله فيها، ولا يظهر فيها أي ملمح لكون الله تعالى قد تجلى بذاته في صورة النار، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، على خلاف النص التوراتي الذي يظهر بوضوح أن الله تعالى كان قد تجلى بذاته في صورة النار، العليقة الملتهبة، تلك العقيدة الأسطورية عن الله بأنه (إله ناري) أو (إله النار) تظهر بشكل جلي في عشرات بل مئات المواقع لمن يتتبع النص التوراتي، فالإله كان يسير أمام شعب إسرائيل ليلاً في صورة عمود من النار ليضيء لهم. تقول التوراة: [وكان الرب يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق وليلاً في عمود نار ليضيء لهم. لكي يمشوا نهاراً وليلاً. لم يبرح عمود السحاب نهاراً وعمود النار ليلاً من أمام الشعب] (خروج ١٣ : ٢١ – ٢٢). ولعل الأمر يستحق دراسة أعمق لمقارنة هذا الإله الناري (يهوه)، لا مع إله الحرب المديانى فحسب، بل مع الإله (آمون) المصري، والآلهة الكنعانية والسومرية، بل وآلهة المجوس الفرس النارية الصريحة، وخاصة إذا ما علمنا أن هذا الإله دائماً ما ينزل أو يتجلى في صورة نارية، تحفها النيران من كل جانب، أو راكباً لعربات من النار، تقذف بالنار من فمه أو أنفه أو سهام يديه على أعدائه، كما يتقبل قربان الصالحين أيضاً بإنزال نار تأكل القربان، وهكذا كان شكله على الجبل المقدس في سيناء بعد خروجهم من مصر، وهكذا تنزل على القوم المناوئين لموسى، وهكذا كان يسكن وسطهم في خيمته أولاً، وهكذا استقر في سكنه بالهيكل بعدها، وهكذا تجلى لأنبياء اليهود، وهكذا أيضاً يجب حرق القرابين ترضية له على المذبح، ويجب تطهير المدن المعادية بعد إفناء سكانها بالنار... إلخ. وأكتفي بإيراد هذه الفقرة التوراتية على سبيل المثال وليس الحصر، تقول التوراة: [أحبك يا رب يا قوتي. الرب صخرتي وحصتي ومنقذي، إلهي صخرتي به أحتمي، ترسي وقرن خلاصي وملجأي، أدعو الرب الحميد

فأتخلص من أعدائي. اكتنفتني جبال الموت. وسيول الهلاك أفزعتني، جبال الهاوية حاقت بي، أشراك الموت انتشبت بي، في ضيقي دعوت الرب وإلى إلهي صرخت، فسمع من هيكله صوتي وصراخي قدامه دخل أذنيه، فارتجت الأرض وارتعشت أسس الجبال ارتعدت وارتجت لأنه غضب، صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت، جمر اشتعلت منه، طأطأ السموات ونزل وضباب تحت رجليه، ركب على كروب[1] وطار وهف على أجنحة الرياح. جعل الظلمة ستره حوله مظلته ضباب المياه وظلام الغمام. من الشعاع قدامه عبرت سحبه، برد وجمر نار، أرعد الرب من السموات والعلي أعطى صوته برداً وجمر نار، أرسل سهامه فشتتهم وبروقاً كثيرة فأزعجهم] (مزامر ١٨ : ١ - ١٤)، هذا هو الإله يهوا رب داود الذي تغنى به، وهو كثير الشبه بالإله (زيوس) رب الأرباب الإغريقي (الإله يوفا الروماني) عندما امتطى مركبته التي يجرها نسران مجنحان في السماء فوق الغيوم، وبيده البروق يرسلها على أعدائه.

ندلف الآن لقضية أخرى شائكة، وهي محاولة تحديد موقع حادثة التجلي الإلهي من الناحية الجغرافية، ففي الحقيقة فإن التوراة قد انتهت من هذا الموضوع سريعاً بأن حددت هذا الموقع بأنه (جبل حوريب) والذي يقع في جنوب فلسطين في صحراء النقب إلى الشمال من خليج العقبة[1]، حيث أوردت النص التالي: [وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان. فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب] (خروج ٣ : ١).

أما عن النص القرآني قد يبدو للوهلة الأولى أنه غامض بعض الشيء حيث لم يورد بشكل صريح تحديداً للموقع الجغرافي، مما دعا الجميع إلى أن يخلطوا بين هذا الموقع (الشمالي)، وبين موقع جبل سيناء المعروف باسم جبل (الطور)، والذي يقع في الجنوب الشرقي من شبه جزيرة سيناء قريباً من خليج العقبة، وفي الحقيقة فإن القرآن الكريم قد ذكر اسم جبل الطور فقط في خضم الأحداث الواقعة بين الخروج الإسرائيلي من مصر ومرحلة التيه في صحراء سيناء، وهو الجبل الذي تلقى عليه موسى الألواح، وأنزلت عليه التوراة، وهو الجبل الذي نتقه الله تعالى فوق رءوس القوم، فكان فوقهم كأنه ظلة... إلخ.

---

(١) الكروب هو نسر مجنَّح، ذو أجنحة قوية.

(٢) هذه هي حدود أرض مديان القديمة والخارجة عن منطقة النفوذ المصري وسلطته.

وعلى العموم، فالتوراة ذاتها تصرح بأن بني إسرائيل قد نزلوا في تلك المنطقة أثناء التيه، في طريقهم من الشمال إلى الجنوب، وهناك توقفوا، وهناك نزلت الوصايا العشر على موسى مع شرائع أخرى توراتية كثيرة، وعلى سفح جبل سيناء هذا تم بناء أول مذبح يهودي[1]، فالتوراة لا تتعارض مع القرآن الكريم في أن جبل التجلي الأول، والتكليف بالرسالة (الذي أسمته جبل حوريب) هو موقع مختلف تماماً، ويقع بعيداً في الشمال عن جبل الطور الواقع في الجنوب.

ولنبدأ أولاً بمناقشة الفرضية الجغرافية المذكورة في التوراة، وسبق وأن أوضحت أن التوراة حددت موقع التجلي الإلهي جغرافياً بأنه على سطح جبل حوريب، والموضح في الخرائط المرفقة بالكتاب المقدس وبعد العهد القديم مباشرة باسم جبل (حور).. ثم نرى بعد فقرات قليلة توراتية أن الرب قال لموسى أثناء تجليه على الجبل: [فقال إني أكون معك وهذه تكون لك العلامة أني أرسلتك. حينما تخرج الشعب من مصر تعبدون الله على هذا الجبل] (خروج ٣ : ١٢).

وهكذا فعبادة الإسرائيليين للرب كان يجب أن تبدأ في نفس منطقة التجلي الأول، أي على سفح جبل (حور) أو (حوريب)[2].

وعلى الرغم من ذلك فإن كل الأحداث التوراتية تنص على أن بداية عبادة الرب، وتلقي الألواح، وتلقي الشريعة، ومعجزات الرب أمام بني إسرائيل، وصنع الخيمة المقدسة، وصنع المذبح الأول إلى آخره من طقوس العبادة حدثت عند سفح جبل آخر إلى الجنوب من جبل (حور)، هو جبل سيناء أو جبل الطور، كما أنهم لم يصلوا إلى جبل حور إلا في آخر مرحلة التيه أي بعد أربعين سنة من الضياع، كما تقول التوراة [ثم ارتحلوا من قادش ونزلوا في جبل حور في طرف أرض أدوم، فصعد هارون الكاهن إلى جبل حور حسب قول الرب ومات هناك في السنة الأربعين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر في الشهر الخامس في الأول من الشهر] (عدد ٣٣ : ٣٧ – ٣٨) وهكذا فنحن أمام تناقض محير.

---

(١) انظر سفر الخروج الإصحاح ١٩، ٢٠ كله.

(٢) حوريب = حور – إب بالمصرية القديمة.

أما عن الوصف القرآني الدقيق لجغرافيا المكان، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ...﴿٣٠﴾ ﴾ [القصص]، إذاً فالقرآن الكريم يحدد تلك البقعة بأنها واد وقد أسماه (طوى)[1]، وهذا الوادي منبسط وجاف، له شاطئ أو عدة شواطئ، مما يعني ترجيحاً أن هذا الوادي قد حفر بواسطة مجرى مائي، وأن نقطة التجلي الإلهي الأول كانت على الشاطئ الذي يصفه السائر بأنه (الأيمن)، وهناك آية أخرى ترسم لنا بعداً جغرافياً آخر يحدد الجهات الأصلية، وفي نفس السورة أيضاً، يقول تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ... ﴿٤٤﴾ ﴾ [القصص] فالآية الكريمة وصفت هذا الموضع أو الشاطئ استناداً إلى الآية الأولى بأنه (الغربي)، وهنا يطرح السؤال نفسه: متى يمكن اعتبار الشاطئ الغربي شاطئاً أيمن بالنسبة للمسافر؟ والإجابة على هذا السؤال هي: أن ذلك المسافر لابد أنه اتجه في سيره من خط أفقي يقع في الشمال بشكل عمودي في اتجاه الجنوب بمحاذاة الشاطئ الغربي لواد[2] يتخذ وضعاً عمودياً من الشمال للجنوب وله شاطئ شرقي وشاطئ غربي. ويجب علينا هنا أن نضع في الحسبان أن رحلة موسى الأولى كانت من الشرق إلى الغرب، أما عودته مع بني إسرائيل فكانت من الغرب إلى الشرق، أي في الاتجاه المضاد.

وعلينا أن نراقب نقطة أخرى مهمة في هذا الوضع، وهي أن الفقرات التوراتية نصت على أن التجلي الإلهي حدث عند سفح جبل حوريب الواقع شمال خليج العقبة، في أرض مديان حينذاك، والمتاخم لحدود دولة أدوم التي تتواضع على الشاطئ الشرقي من خليج العقبة، ومن المفهوم بوضوح أن مديان في ذلك الوقت كانت خارجة عن حدود السيطرة المصرية، وتأتي الضربة القاصمة لادعاء التوراة بأن منطقة التجلي هي عند سفح جبل حوريب، هذه الضربة المسرعة لتضرب عنق الحقيقة من واقع التوراة ذاتها، تقول التوراة: [وكان يوم كلم الرب موسى «في أرض مصر» أن الرب كلمه قائلاً أنا الرب. كلم فرعون ملك مصر بكل ما أنا أكلمك به. فقال موسى أمام الرب ها أنا أغلف الشفتين. فكيف يسمح لي فرعون] (خروج ٦ : ٢٨ – ٣٠). ومعلوم مسبقاً أن

(١) طوى – طاوي أو تاوي بالمصرية القديمة وتعني (الأرضين) أو مجمع الأرضين.

(٢) هذا الوادي محفور في هذا المقام سابقاً بمجرى مائي.

هذا الحوار هو الذي دار بين الله وموسى في حادثة التجلي الأول ذاتها أي على سفح جبل حوريب كما نصت التوراة قائلة: [وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان. فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب وظهر له ملاك الرب[1] بلهيب نار من وسط عليقة] (خروج ٣ : ١ – ٢).

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو:كيف يمكن إذاً اعتبار هذا المكان الواقع في مديان جزءاً من أرض مصر كما قال النص؟وأترك الرد على السؤال للقارئ الكريم بعد أن يفند منطقية سير الأحداث ليستشف أي النصين أصدق في الوصف لزمان ومكان حادثة التجلي الإلهي الأول على موسى عليه السلام.

تتبقى لنا في هذا المقام نقطة أخيرة تتعلق بطلب الله سبحانه وتعالى من موسى عليه السلام أن يخلع نعليه نظراً لقدسية مكان التجلي، يقول تعالى: ﴿...فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢﴾ [طه]. وهذا الأمر مفهوم عند المسلمين الذين يقومون بخلع نعالهم قبل دخول أي مسجد أو الوقوف بين يدي الله تعالى للصلاة، أما أن يأتي الأمر نفسه في النص التوراتي عن قول الإله لموسى: [فقال لا تقترب إلى ههنا. اخلع حذاءك من رجليك. لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة] (الخروج ٣ : ٥). فذلك أمر غير مفهوم، لأن هؤلاء القوم لا يعتبرون خلع الأحذية طقساً مقدساً لأداء الصلاة مثلاً أو غيرها من العبادات، بل إنه من الغريب أن نجد أن خلع النعال هو رمز للإذلال والتقاعس عن أداء المهام والواجبات المقدسة مثل التنصل من واجب الزواج من زوجة الأخ المتوفى، تقول التوراة عن ذلك: [وإن لم يرض الرجل أن يأخذ امرأة أخيه تصعد امرأة أخيه إلى الباب إلى الشيوخ وتقول قد أبى أخو زوجي أن يقيم لأخيه اسماً في إسرائيل. لم يشأ أن يقوم لي بواجب أخي الزوج. فيدعوه شيوخ مدينته ويتكلمون معه فإن أصر وقال لا أرضى أن أتخذها، تتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ وتخلع نعله من رجله وتبصق في وجهه وتصرخ وتقول هكذا يفعل بالرجل الذي لا يبني بيت أخيه. فيدعى اسمه في إسرائيل بيت مخلوع النعل] (تثنية ٢٥ : ٧ – ١٠).

(١) ملاك الرب هو الإله ذاته في التوراة كما هو معلوم.

ثم نأتي الآن إلى وقائع حادثة التجلي الإلهي على موسى، حيث نجد أن النص القرآني دخل مباشرة إلى صلب الموضوع، فموسى الذي جذبته النار في تلك الليلة حالكة السواد، قارصة البرودة، فوجئ بنداء يلف المكان، أعلن فيه الله سبحانه وتعالى من خلاله عن ذاته العلية لموسى قائلاً: ﴿ ...إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القصص]، وفي نص آخر ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ...﴿١٢﴾ ﴾ [طه]، وأيضاً ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ...﴿١٤﴾ ﴾ [طه]، وقد شفع الله سبحانه وتعالى هذا الإعلان مباشرة بتكليفات إلهية، على المستوى الشخصي ﴿ ...فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾ [طه]، وعلى مستوى تكليف الرسالة لقومه ﴿ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾ [طه]، ذلك لمهمة محددة هي ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [طه]، وهنا أبدى موسى بعضاً من مخاوفه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص].

وهكذا فقد كان موسى عليه السلام يخشى من ثلاثة أشياء:

أولاً: التكذيب، فحادثة التجلي هذه حادثة فردية في مكان منعزل وتحتاج للدليل.

ثانياً: الانتقام المترتب على حادثة قتل المصري.

ثالثاً: نقطة ضعفه الشخصي المتمثلة في إحساسه بقلة فصاحة اللسان المطلوبة لمهمة الدعوى وجسامة مهام الرسالة.

أما عن وقائع حادثة التجلي الإلهي على موسى في النصوص التوراتية نجد أن الإله أعلن نفسه لموسى أولاً قائلاً: [أنا إله أبيك إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب] (خروج ٣ – ٦)، وبعد عدة فقرات أردف قائلاً أنه إله شعب إسرائيل على المستوى الأعم [وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر] (خروج ٣ : ١٠)، وأيضاً: [وتقولون له الرب إله العبرانين التقانا] (خروج ٣ : ١٨)، وهكذا في النص التوراتي لم يفصح إله العبرانيين عن أي صفات خاصة بذاته ولا عن أي صفة توحيدية لهذا الإله، كما لم يقل لموسى عن اسم يدعى به هذا الإله، وما دام هناك أسماء للإله تطلق عليه، فهناك منطقياً احتمال كبير لوجود تعددية إلهية، ويعزز هذا الاحتمال أن النص التوراتي مرة يقول أن الله هو الذي كان يكلم موسى تارة، وأن ملاك الله هو الذي كان يكلمه تارة أخرى.

وبمقارنة النصين القرآني والتوراتي في هذه الإشكالية نلاحظ أن الله قرآنياً هو إله لكل البشر، وفي النص التوراتي هو إله خاص جداً بشعب إسرائيل وليس له أي اهتمامات تذكر إلا في مشاكلهم الخاصة فقط.

ولاستكمال تلك النقطة، نجد أن النص التوراتي يجرنا إلى مشكلة أخرى تظهر في الصفة التي أراد الله أن يضفيها على هارون بالنسبة لموسى، تقول التوراة: [وهو يكلم الشعب عنك وهو يكون لك فما وأنت تكون له إلها] (خروج ٤ : ١٦)، وفي نص آخر: [فقال الرب لموسى انظر أنا جعلتك إلهاً لفرعون وهارون أخوك يكون نبيك] (خروج ٧ : ١)، ولا أجد لذلك تفسيراً إلا في الكاباله اليهودية[1]، والذي يرى أن الإله الأب والإلهة الأم المسماه (الشاكيناه) قد تولد منهم ابن، هذا الابن يحمل نفس الصفات الإلهية، وهذا ما أوردته التوراة صراحة في حادثة التجلي نفسها، إذ تقول: [فتقول لفرعون هكذا يقول الرب: إسرائيل ابني البكر. فقلت لك أطلق ابني ليعبدني فأبيت أن تطلقه، ها أنا أقتل ابنك البكر] (خروج ٤ : ٢٢ – ٢٣)، وتلك الأفكار عن التصور التوراتي للإله بأنه هو الرب مرة، وملاك الرب مرة، وهو موسى ذاته في مرة، تلك النظرة التعددية للإله قطعاً هي إحدى البذور التي أفرخت فيما بعد فكرة الأقانيم الإلهية المتعددة المظاهر والتي أصبحت لاحقاً (آب وابن وروح قدس).

وأضيف هنا أن موسى عليه السلام كان هو الذي بادر بطلب تنصيب هارون وزيراً له، وعدد دواعي هذا الطلب الذي استجاب الله تعالى له في النص القرآني: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ ﴾ [طه]، بما يتناسب مع سمات شخصية موسى القيادية المنظمة والتي أبرزها القرآن الكريم في محكمه، أما عن النص التوراتي، فالإله هو الذي اقترح تعيين هارون في مواجهة محاولات موسى المستميتة في التهرب من المسئولية الإلهية الملقاه على عاتقه، تقول التوراة: [فقال موسى للرب استمع أيها السيد لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا من حين كلمت عبدك. بل أنا ثقيل الفم واللسان.

(١) الكاباله هو مذهب التصوف في اليهودية الكلاسيكية.

فقال له الرب: من صنع للإنسان فماً أو من يصنع أخرس أو أصم أو بصيراً أو أعمى. أما هو أنا الرب. فالآن اذهب وأنا أكون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به. فقال استمع أيها السيد. أرسل بيد من ترسل. فحمى غضب الرب على موسى وقال أليس هارون اللاوي أخاك. أنا أعلم أنه هو يتكلم. وأيضاً ها هو خارج لاستقبالك. فحينما يراك يفرح بقلبه، فتكلمه وتضع الكلمات في فمه. وأنا أكون مع فمك ومع فمه وأعلمكما ماذا تصنعان. وهو يكلم الشعب عنك. وهو يكون لك فما وأنت تكون له إلهاً. وتأخذ في يدك هذه العصا التي تصنع بها الآيات] (خروج ٤ : ١٠ – ١٧). بما يتفق مع الشخصية التواكلية التي ترسم ملامحها التوراة لذلك النبي الكريم – حاشا لله –.

وننتقل الآن إلى نقطة أخرى وهي عن المعجزات الإلهية التي أراها الله سبحانه وتعالى لموسى ليطمئن قلبه أولاً إلى قدرة الله تعالى، ثم ليريها لفرعون مصر ليستجيب لمطالبه ويعلم أنها مطالب إلهية لا تقبل الجدل، والآيتان أو المعجزتان كانتا: تحويل العصا إلى حية أو ثعبان، وكذلك تحول لون اليد من الطبيعي إلى اللون الأبيض الناصع والعكس. وفي الحقيقة فإن التوراة ذكرت هاتين المعجزتين بصورة مسطحة سردية قد تدعونا لتفهم موقف فرعون مصر من هاتين المعجزتين بأنهما ما هما إلا خدع سحرية مما دعاه إلى استدعاء السحرة للرد عليها بخدع سحرية مماثلة، وقد أضافت التوراة آية ثالثة لتوكيد هذا المعنى ليس أكثر. تقول التوراة: [فأجاب موسى وقال ولكن ها هم لا يصدقونني ولا يسمعون لقولي. بل يقولون لم يظهر لك الرب. فقال له الرب ما هذه في يدك. فقال عصا. فقال اطرحها إلى الأرض. فطرحها إلى الأرض. فصارت حية. فهرب موسى منها. ثم قال الرب لموسى مد يدك وأمسك بذنبها فمد يده وأمسك به. فصارت عصا في يده. لكي يصدقوا أنه قد ظهر لك الرب إله آبائهم إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب. ثم قال له الرب أيضاً أدخل يدك في عبك. فأدخل يده في عبه. ثم أخرجها من عبه وإذا يده برصاء مثل الثلج. ثم قال له رد يدك إلى عبك فرد يده إلى عبه، ثم أخرجها من عبه وإذا هي قد عادت مثل جسده. فيكون إذا لم يصدقوك ولم يسمعوا لصوت الآية الأولى أنهم يصدقون صوت الآية الأخيرة. ويكون إذا لم يصدقوا هاتين الآيتين ولم يسمعوا لقولك أنك تأخذ من ماء النهر وتسكب على اليابسة فيصير الماء الذي تأخذه من النهر دما على اليابسة] (خروج ٤ : ١ – ٩). هكذا خلا النص التوراتي

من أي مضمون رمزي أو مادي لهذه الحيل السحرية، يعيننا على تفهم تلك القضية أو أي فلسفة لتلك المعجزات الثلاثة.

بينما النص القرآني أوضح لنا أن الآيات البرهانية الإلهية لموسى ثم لفرعون مصر هما آيتان فقط، وقد أفادنا أيضاً بعمق فلسفة هذه الآيات، فهو يرينا بعداً آخراً متعلقاً بهاتين المعجزتين يسترعي الانتباه، فعن العصا التي تتحول لحية، يقول تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [طه]، وكان هذا الحوار بين الله تعالى وبين موسى عليه السلام في حادثة التجلي الإلهي في صحراء سيناء، والواضح من إجابة موسى عليه السلام هو شرح القيمة الرمزية لهذه العصا في تلك الحادثة، فهي جسم ميت لا روح فيه أولاً، ثم أنها أداة ضعف ووهن (أتوكأ عليها) ثانياً، وثالثاً هي رمز لحرفة رعي الغنم (وأهش بها على غنمي) هذه الحرفة أكثر الحرف مهانة في عيون المصريين، ثم أنها تستخدم لعشرات الأغراض الأخرى إلا لغرض التحول لشيء آخر حي كالثعبان مثلاً. وهكذا فأن تتحول العصا رمز الضعف وانحطاط القدر إلى الثعبان الذي اتخذه الفراعنة رمزاً لهم على مر العصور، ويضعونه على رءوسهم وفي مقدمة تيجانهم لأنه هو الصل الملكي المرعب، الذي يحرق الأعداء بالنار في المعارك، وهو الحيوان الأكثر شهرة الذي نسجوا حوله كل أساطير الرعب في عقائدهم، فتلك فقرة رمزية عميقة الدلالة في الحوار بين موسى وفرعون مصر، وتعني أن الله سبحانه وتعالى قادر على تحويل رمز الضعف والانحطاط إلى رمز القوة الفائقة، وتحويل الميت لحي، فهي معجزة للفرعون الذي دأب هو وأسلافه على تسمية أنفسهم بـ (معطي الحياة) أو (معطي نسمة الحياة).. إلى آخره من الصفات التي لا تجوز إلا لله وحده، ونرى هذا جلياً في الحوار الدائر بين موسى وفرعون بعد أن أراه المعجزات السابقة، إذ سأل فرعون موسى قائلاً: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه]، وهذا الميت الضعيف الشأن لم يكن إلا أمة إسرائيل، تلك التي تتحول بالمساندة الإلهية إلى قوة عاتية لا يستطيع أي شخص كائناً من كان أن يقف أمامها ويعاديها.

أما عن تحول اليد إلى اللون الأبيض الناصع، فذلك له دلالة شديدة في الفكرين العبراني والمصري القديم على حد سواء، حيث إن لون الجلد الأبيض هو رمز لمرض (البرص)، وهذا المرض كان ينتشر في صفوف العبرانيين بشكل مزعج[1]، وأصبح يعد في العقائد العبرانية الإسرائيلية رمزاً للنجاسة التي تقتضي الإبعاد بل وتستوجب اللعنة، وقد أفردت التوراة سفراً خاصاً كاملاً تمتلئ صفحاته بطقوس قيام الكاهن بتطهير الأشخاص والأماكن والأثاث والثياب وغيرها من البرص عن طريق الأدعية والهبات والقرابين والماء والنار والأعشاب وغيرها، هذا هو سفر اللاويين، وعلى سبيل المثال وليس الحصر أذكر منه مايدل على المعنى المقصود، تقول التوراة: [والأبرص الذي فيه الضربة تكون ثيابه مشقوقة ورأسه يكون مكشوفاً ويغطي شاربيه وينادى نجس نجس. كل الأيام التي تكون الضربة فيه يكون نجساً. إنه نجس. يقيم وحده. خارج المحلة يكون مقامه] (لاويين ١٣ : ٤٥ – ٤٦).

ولعل تفشي هذا المرض في جموعهم هو السبب في اعتبارهم دوماً (نجساً) في عين المصريين كما تقول التوراة، أو (البرص الأنجاس) كما تقول الوثائق المصرية القديمة إبان حرب الخروج الإسرائيلي من مصر المسماه (حرب الأنجاس)، وظلت تلك التسمية عاراً عليهم، وهكذا فإن معجزة اليد هي رمز القدرة الإلهية على العلاج الحاسم لهذا البرص أو النجس، ولفهم ذلك الرمز جيداً علينا أن نستحضر اللفظ التوراتي أثناء حادثة التجلي الإلهي وهو [وإذا يده برصاء مثل الثلج] (خروج ٤ : ٦)، كما يجب أن نستحضر النص القرآني في نفس الحادثة أيضاً ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢﴾ [طه] أي بيضاء ولكن من غير برص.

والخلاصة أن تحويل اليد من مظهر أبرص نجس إلى مظهر أبيض طاهر، هو رمز للقدرة الإلهية في تحويل هذا الشعب النجس في عيون المصريين إلى شعب كامل الطهارة، والمعجزتان كانتا تحملان إعجازاً رمزياً عميقاً أخفق الفرعون عن تفهمه على صورته الصحيحة، التي تعني أن الله عز وجل قادر على تحويل هذا الشعب الميت الضعيف قليل الشأن والمنعوت بالنجاسة إلى أمة حية قوية رفيعة المكانة وطاهرة.

(١) ينتشر مرض البرص في الأماكن السكنية المكتظة التي لا تلبي الحد الأدنى من الشروط الصحية كالجيتوهات القديمة مثلاً للعبرانيين.

وقبل أن أنهي هذه الجدلية، أود أن أشير إلى الإعجاز اللفظي القرآني اليقظ والفطن والعالم بطبيعة هؤلاء القوم البدو ساكني الصحراء، العالمين بسلوك وطبيعة حيوانات ودواب وزواحف الصحراء وصفاتها، فالتوراة أطلقت لفظ (حية) على عصا موسى في حادثة التجلي في صحراء سيناء كما سبق وأن ذكرنا، وغيرت اللفظ في قصر الفرعون قائلة على تلك العصا: [طرح هارون عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعباناً] (خروج ٧ : ١٠)، فوافقهم القرآن على تلك التسمية في المكانين في صحراء سيناء وفي قصر فرعون، يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأعراف]، وهنا يبرز سؤال هل هذه العصا (حية) أم (ثعبان)؟ وبشكل آخر هل هذه العصا (ذكر أم أنثى)؟ والإجابة ببساطة أن هؤلاء البدو عالمين بظروف الصحراء البيئية كما أصبحوا عالمين بظروف المدن بحكم تواجدهم في مصر، ويعلمون أنه لا تعيش الحيات في المدن، ولا تعيش الثعابين في الصحراء، فوضعوا كل لفظ في مكانه الصحيح، وقد خاطبهم القرآن الكريم بنفس المنطق البدوي تارة، والمدني أو الحضري تارة أخرى، وكل في مكانه المناسب والصحيح دون أن يخفق.

وإلى نهاية تلك الحادثة، نرى أن موسى عليه السلام خرج من حادثة التجلي الإلهي بعد أن كلمه ربه، وتعرف موسى على خصائص وصفات هذا الإله الأوحد والرب الفعلي، واطمأن قلبه إلى اقتداره، وعرف واجبات الرسالة المنوطة به، وأجيب إلى طلبه باتخاذ أخيه هارون وزيراً ومؤازراً سواء في مواجهة الفرعون المصري العاتي المتغطرس، أو في قيادة هذا الشعب المتمرد، وتحويله من موات وضعف وانحطاط ونجس إلى أمة حية قوية طاهرة محترمة عن طريق انتهاج الشريعة الإلهية التي هي الأسلوب الوحيد لتحقيق هدف كاد بالفعل أن يكون مستحيلاً كهذا.

ولم يتوان موسى عليه السلام بعد ذلك، بل ذهب إلى فرعون بصحبة أخيه هارون، ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ﴾ [طه]، بعد أن مر بالضرورة على أماكن تجمع بني إسرائيل في شمال شرق الدلتا المتاخمة لأرض سيناء، ثم توجه إلى

عاصمة الفرعون في (تانيس) أو (بر رمسيس) المجاورة لتلك البقعة ليبدأ في مباشرة مهمته، ولا يذكر لنا أي من النصين القرآني أو التوراتي أي صعوبة في لقاء موسى وجهاً لوجه، مما يشير إلى رغبة الفرعون ذاته في لقاء الموفد العبراني، وذلك يعني في مضمونه أن بني إسرائيل في ذلك الوقت لم يكونوا شرذمة من العبيد ممن يستنكف أو يرفض الفرعون مقابلة وفودهم ومباحثة مطالبهم، وتدل النصوص أن موسى قد تقدم بطلباته للفرعون بشكل مباشر، موضحاً أنها إرادة إلهية وشفع ذلك بإجراء المعجزتين (العصا واليد) أمام الفرعون وحاشيته، الأمر الذي لم يفهم الفرعون مقصده ومغزاه، بل فهمه كله على أنه مطلب قومي للعبرانيين، مما يتعارض سطحياً مع المصالح الشخصية والقومية، العقائدية والاقتصادية والسياسية، ويشكل خطورة بالغة على البلاد كلها وعلى ذاته شخصياً، ونظر إلى المعجزات الإلهية على أنها حيل سحرية يستطيع سحرة المعابد المصرية في جميع المدائن أن يصنعوا مثلها أو أحسن منها، فكان اللقاء بين موسى وهارون من جهة وبين الفرعون وقومه من جهة أخرى لقاء عاصفاً، عبر فيه موسى عن ذاته ومطالبه، وعبر فيه الفرعون عن رفضه لتلك المطالب مبيناً الأسباب الداعية لذلك الرفض أمام حاشيته.

وبمقارنة النصوص كالمعتاد نرى أن النص التوراتي يرينا أن رفض الفرعون لمطالب موسى كان بسبب غطرسته و(قساوة قلبه) كما وصفتها التوراة، تلك القسوة التي زادها الإله في طبيعة الفرعون حينذاك، وعليه يجري الإله المصائب والبلايا في أرض مصر، فيكون ذلك عبرة لمن يعتبر على مر العصور، وكأن الإله قد قرر مسبقاً عقاباً لمصر لا فرار منه، كما يشير النص أيضاً إلى أن الناحية الاقتصادية الناجمة عن توقف الإسرائيليين عن العمل كانت سبباً آخر لهذا الرفض، كما يشير بشكل مقتضب إلى نقطة أن تكاثر التعداد الإسرائيلي هو الذي جرأهم على بداية هذا التمرد، ومن ناحية أخرى نجد أن موسى لم يقم بإجراء المعجزتين أما الفرعون في اللقاء الأول وبلا سبب واضح، بل إنه عندما قرر الاستعانة بذلك أجرى معجزة العصا منفردة في لقاء لاحق بعيد، بعد أن بدأ الفرعون بالفعل في اتخاذ إجراءات انتقامية من الإسرائيليين، ولم يقم مطلقاً بعمل معجزة اليد، رغم أن الإله طلب إجراءهما متلازمتين وعلى التعاقب، كما نلاحظ أن الحوار الدائر بين موسى والفرعون كان مختصراً على طلبات موسى من الفرعون، دون

أدنى ذكر للإله وطبيعته وماهيته بل وحتمية ألوهيته وربوبيته للفرعون ذاته، بل هو فقط إله العبرانيين وإله إسرائيل فقط، تقول التوراة: [وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبي ليعبدوا لي في البرية. فقال فرعون من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق إسرائيل، لا أعرف الرب، وإسرائيل لا أطلقه. فقالا إله العبرانيين قد التقانا. فنذهب سفر ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا.لئلا يصيبنا بالوباء أو بالسيف. فقال لهما ملك مصر لماذا يا موسى وهارون تبطلان الشعب من أعماله. اذهبا إلى أثقالكما. وقال فرعون هو ذا الآن شعب الأرض كثير وأنتما تريحانهم من أثقالهم] (خروج ٥ : ١ – ٥).

وبناء على هذا النص فإن هذا الإله هو إله محلي مقتصر فقط على هؤلاء القوم. لذلك فنحن لم نصدم من رد الفرعون، الحاكم المسئول ذي الصفة الإلهية المحلية أيضاً. وهناك أيضاً نقطة في غاية الأهمية وهي إطلاق الفرعون على هؤلاء القوم بأنهم (شعب الأرض)، وتلك التسمية تعني اعتراف الفرعون بشكل ضمني لهؤلاء القوم بحقوق المواطنة في مصر.

أما النص القرآني فيحمل أجمل وأسمى معاني الحوار بين الكفر والإيمان، وبين الوثنية والتوحيد، وبين الإله العنصري المحلي والإله العالمي الذي تمتد سطوته لتشمل كل المخلوقات في كل العوالم وفي كل زمان ومكان، كما يضرب مثالاً رائعاً لآداب الدعوة للإيمان بالله الواحد، كما يوضح بشكل جلي أسباب تخوف الفرعون من الاستجابة لمطالب موسى، يقول تعالى: ﴿ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً

أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾ [طه].

وهكذا نرى أن الله تعالى يطلب من الرسولين التقدم بالطلب بشكل فيه لين ورفق، وفي النص إيحاء إيجابي باحتمالية إقرار الفرعون بالحق، ثم أن الطلب فعلاً صيغ بشكل مهذب مشفوع بالسلام ﴿ ...وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾[طه]، ذلك لأن مخافة فرعون الرئيسة هي أن إخراج وتحرير بني إسرائيل قد يؤدي لكارثة قومية تتمثل في إعلان الحرب، بل وطرد المصريين أنفسهم من أرض مصر، قال تعالى على لسان الفرعون: ﴿ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾ [طه]، وكذلك على لسان سحرة فرعون: ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ ﴾ [طه]، أي أن مخاوف الفرعون أيضاً امتدت لإحداث تغييرات دينية وسياسية عاش عليها شعب مصر لقرون ﴿ ...إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [غافر]، إضافة إلى أن تحرير شعب مقاتل ضخم التعداد أثبت عداوته للمصريين على مر القرون قد يكون عملاً فيه مجازفة خطيرة، وقد ينتهي بحرب تؤدي إلى احتلال أجزاء واسعة من مصر وطرد المصريين منها، أو تؤدي على الأقل إلى السيطرة الإسرائيلية على المصريين سياسياً واقتصادياً وعسكرياً ودينياً، يقول تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يونس]، أو ربما توجسا من تاريخ العبرانيين الفاسد في أرض مصر من قبل ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ ...﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وهكذا فإن عبارة ﴿ ...وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾[طه]، هي طمأنة من موسى إلى الفرعون من أن تلك المخاوف لا أساس لها من الصحة، بل إن تلبية مطالب بني إسرائيل تضمن سلاماً دائماً بين الطرفين.

ثم بدأ حوار طويل بين الطرفين حول خصائص الإله تعالى، وقد أمر الله تعالى رسوليه مبدئياً بإعلان شمولية الإله للبشرية جمعاء بما فيهم الفرعون ذاته ﴿ ...فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ...﴿٤٧﴾ ﴾ [طه]، وهكذا تكون الدعوة قد وصلت للفرعون كاملة غير منقوصة، وكان الرفض لتلك الدعوة من جانب الفرعون آتياً بعد الإبلاغ والتبيين ﴿ وَلَقَدۡ

أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾ [طه]، بما يتناقض مع المقولة التوراتية القائلة بأن هلاك الفرعون وجيشه كان دينونة حتمية أراد الإله لها أن تتم تحت أي ظرف.

وبعد ذلك الرفض من الفرعون لطلبات موسى تتوالى الأحداث، وتتوالى الآيات العظمى التي أجراها الله تعالى على الفرعون وقومه، وكان الهدف من تلك الضربات أو الآيات وكذلك عددها ونوعيتها وتوقيتها مختلفاً فيما بين النصين كالعادة، فالهدف من تلك الآيات حسب المنظور القرآني كان محاولة إقناع الفرعون بالعدول عن غطرسته، وإيمانه بالله الواحد القهار، يقول تعالى: ﴿ ...وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الزخرف]، ﴿ ...لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه]، وأيضاً: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه] ونحو ذلك، كما أن القرآن الكريم أوضح أن شدة الضربات كانت متدرجة إحداثاً لإنذار متصاعد الشدة ليس الغرض منه العقاب بل التحذير، يقول تعالى: ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا... ﴿٤٨﴾ ﴾ [الزخرف]، بخلاف النص التوراتي الذي يعكس إصداراً إلهياً لحوحاً على تدمير هذا البلد وأهله وحكامه، بشكل لا ينفع معه استغفار أو توبة، بل هو (دينونة حتمية) كما تسميه الأدبيات التوراتية، أي إرادة إلهية مسبقة لا يمكن أن تتغير أو تتبدل، لذا كان الإله يجري الكارثة ويقرنها بزيادة تصلب وقسوة قلب الفرعون، حتى لا يجد فيها عظة أو إنذار، فيستمر بالتالي في الغي والغطرسة، وتستمر الكوارث والضربات بالتالي وصولاً لمرحلة الدمار الشامل، أي أن الفعل ورد الفعل مقرران إلهياً لهدف إلهي لا يقدر البشر على تغييره ولا على فهم سببه في الأساس.

***

الأحداث المواكبة لدعوة موسى للفرعون:

ويمكن تقسيم الأحداث التي وقعت في مصر لاحقاً إلى مجموعتين، أولاهما: هي الضربات العشرة الانتقامية الموجهة لمصر حسب النص التوراتي المصر على ذلك العدد، أو حسب النص القرآني هي تسع آيات بينات تحذيرية أو تذكيرية. وثانيهما، فهو حدث تحدث موسى عليه السلام لسحرة فرعون، وتلك الحادثة جاءت بشكل مقتضب في التوراة، ومكانها كان قصر فرعون، وليس تحدياً عاماً في إحدى الساحات كما ذكر